السلم الدائم

والحلف العام

« الناس كلهم إخوة والدنيا وطن كل إنسان » !!

زينون : الفيلسوف الاغريقي

بدأ الإنسان مغيراً بطبعه غاصباً فكانت تغير القبائل الأقل حضارة على البقاع الغنية الأكثر حضارة فاذا جمعت هذه بين الحضارة والقوة صدتها وإلا غزتها الأولى وبدأت الحضارة تنمو من جديد كما حدث في مصر في عهد الهكسوس وفي بابل في عهد البابليين والآشوريين ، والكلدانيين ، وفي كنعان عند دخول اليهود ، وفي البلقان عند إغارة الاغريق على الايجيين الذين أسسوا الحضارة الايجية ، وفي آسيا الصغرى عند هجوم القبائل الآرية المختلفة. ولكننا مع ذلك نجد العقل البشري في نظره الى الانسانية يتغير ويقابل ذلك تغير في الكتب السماوية القديمة كما هو ظاهر من مقارنة أسفار التوراة الأولى التي كانت تحث على سفك الدماء بالأسفار الأخيرة التي ذكر فيها السلم الدائم ، واخوة الناس في الانسانية ، والمساواة بين القوي والضعيف ، ولو أن كل ذلك ممزوج بفكرة سيطرة اليهود ، وكذلك نرى الاغريق كانوا في أول أمرهم يقسمون العالم إلى أغريق وبرابرين ، وكانت كلمة باربارين تنم بشيء من الغربة والاحتقار مثل كلمة جنتيل عن اليهود . ولكن في النهاية صارت الفلسفة الأغريقية تنظر نظرة أعم إلى الانسانية ولاسيما مذهب زينون. ومن المأثور عنه قوله « إن الناس كلهم اخوة والدنيا وطن كل إنسان » إلا أننا مع ذلك لا نجد محاولة لتأسيس حلف عام ، لقد تحالفت بعض المدن الاغريقية لأغراض دينية كرعاية المعابد أو لتقرير ما يجوز عمله في الحرب وما لا يجوز وهو عمل إنساني وهو ما قام به الحلف الامفكتيوني ، أو لأغراض سياسية كصد الفرس وهو غرض حلف ديلوس الذي تحول إلى امبراطورية أثينية ونشوة القوة والظفر ، وولدت الصلف والكبرياء الحربي وحب الاعتداء فأثارت أثينا

مغمورة في صقلية . وإذا قرأنا ما كتبه ثيوكيديدس وجدنا أنه يعزو الى الاثينيين الآراء والأقوال التي كنا نسمع بها عن النازيين والفاشست أي قولهم أن الحرب واجبة ، وأن من حق القوي أن يستعمل قوته ، وأن يسيطر على الضعيف . ولكن هذا الاعتداء كان من أسباب سقوط أثينا ، وصار ملك الفرس حكماً بين الدويلات الاغريقية إلى أن ظهرت مقدونية وسطا الإسكندر المقدوني على الشرق . ومن الأساطير المأثورة أنه وجد في بلدة بها عقدة قيل أن من يستطيع فكها يسود العالم ، فأخرج الاسكندر سيفه وقطعها به بدل أن يحاول حلها وهذه هي العقدة المعروفة بالعقدة الجوردية فصارت مثلاً يتمثل به في السياسة عند ما يحاول أن يحل إنسان مشكلة دولية بالسيف بدل حلها بالتفاهم والمفاوضة والتراضي وتجزأت دولة الاسكندر بعد موته وغزت روما أكثر العالم المتحضر حول البحر الابيض وما يلي ذلك واستظلت الدول وتأخرت بالسلم الروماني ولكنها لم تستطع منع الحرب حتى بين جيوشها ، ثم سقطت . وكان يظن أن المسيحية ستمنع الحروب وتحقق السلم العام فاذا كل ذلك حلم جميل وكانت الفكرة السائدة أن العالم المسيحي عالم واحد وأمة واحدة ، ولكنها فكرة لم تحقق كما أن الاوروبيين كانوا يعدون باقي العالم من غير المسيحيين خارجاً عما تقتضيه العهود المرعية . وما لبث أن ظهر فشل البابوات في تكوين امبراطورية دينية عالمية ونشأت فكرة التوازن الدولي . وكان أول من جاهر بضرورة حلف دولي عام سولي وزير هنري الرابع، ولكننا لو فحصنا هذا المشروع وجدنا تحته أغراضاً سياسية خاصة بفرنسا وتأمينها وصيانة سلامتها من دول أسرة الهابسبرج التي كانت تخشاها كما تخشى الدول الجرمانيــة في العصر الحديث ، والحقيقة أن كل مشروع من هذه المشاريع إنما يلجأ إليه الساسة عند الضرورة . ثم أننا نجد الدول الاوروبية في عهد لويس الرابع عشر صارت تنادي بضرورة التحالف ضده لمنع اعتدائه على جيرانه الضعفاء ، وكثر الكلام في ضرورة تأمين الضعيف من سطوة القوي ولكن الدول ما لبثت أن اقتسمت مع حفيده شعوب الامبراطورية الاسبانية الضعيفة .

ثم جاءت الثورة الفرنسية فخطب الثوار الفرنسيون زاعمين أنهم يريدون خير الإنسانية، وكان منهم من يسمي نفسه خطيب الانسانية أو محب الانسانية، وكانت أكبر صبغة عندهم أن يحموا

بت الوزير الانجليزي عدو الجنس البشري ، وأعلنت الحكومة الفرنسية إنها حليفة لجميع شعوب العالم ضد الطغاة ووعدت الشعوب المغلوبة على أمرها بتحريرها . ومن العجيب أن بعض الأدباء بيننا من تنقف بالثقافة الأدبية الفرنسية ولم يعي عظات التاريخ كان إلى عهد قريب لا يزال يفتتن بهذه الأقوال التي ظهر بطلانها من عهد بعيد، فقد صارت جيوش الجمهورية الفرنسية جيوشاً غازية مستعمرة مستغلة ، واستفحل ذلك في عهد نابليون بونابرت ثم تحدت ضده الدول وزعمت انها تحاربه كي تحرر العالم من طغيانه، وصارت تعد كل أمة بالحرية ؛ ولكن ما لبث ان سقط نابليون حتى اقتسمت الدول المتحالفة شعوب العالم ونسيت وعودها . وصار نابليون في منفاه يأتي على تابعه يتذاكرون أحاديث السلم العام والحلف الانساني الذي يعد لابنه ان يحققه عند ما يستطيع أن ينال الملك . وفي هذه الأحاديث يقول نابليون إن الحلف الانساني لا يحقق بقطع العقدة الجوردية بالسيف كما فعل الاسكندر وكما فعل هو وإنما يكون بالتفاهم . هذه بعض أحاديث نابليون في جزيرة سنت هيلانة التي نُفي إليها وهي أحاديث تخالف تاريخ حياته بعض المخالفة على الأقل. ومن الغريب ان خصمه اسكندر الأول قيصر الروسيا طلع هو أيضاً على الدول بفكرة حلف عام أسماه الحلف المقدس يتعهد فيه المتحالفون أن يعاملوا رعاياهم حسب مبادىء المسيحية . وقد رأت بعض الدول في هذا رغبة من الروسيا في إخراج تركيا المسلمة ونيل مآربها الاستعمارية منها . وعلى أي حال فإن دول هذا الحلف كانت مشغولة بمكافحة نزعات الحرية والوطنية التي ظهرت بين الشعوب الأوربية التي كانت خاضعة لها . وتمّ توحيد المانيا وإيطاليا وظهرت دول كانت شعوبها مغمورة، ولاح ان العالم مسوقٌ إلى حرب عالمية كبيرة لاختلاف مطامع الدول ومصالحها، ففكر الساسة في التحكيم الدولي ، وتأسست محكمة لاهاي ، كما فكروا في الحد من التسليح. ولكن كل هذا لم يفد لمنع الحرب وهكذا انقاد العالم إلى الحرب العالمية الأولى التي ظن إنها خاتمة الحروب، وتأسست عصبة الأمم بعد ان طلع الرئيس ولسن بشروطه، وتلقاه العالم كأنه رسول السلام، ولكنه أطمع الشعوب أكثر مما أشبعها ، فخاب أكثر مما نجح، وتخلى عنه نواب الشعب في أمريكا فتخلت أمريكا عن عصبة الأمم ولم تفلح تلك العصبة في منع الحروب . وقيل إن سبب ذلك إنها لم يكن لها جيش دولي ويخيل لي أن الساسة ينالون أقصاهم في هذا

الجيش الدولي إذ كيف يكون جيشاً دولياً يخلص آحاده لغير دولهم إذا كانت هي المعتدية أليس يكون منقسماً على نفسه .

***

ولقد دهمت الحرب العالمية الثانية العالم وهي تنذر بحروب أخرى . ولم نسمع ان الدول استطاعت تكوين جيش دولي حقيقي وانما هي أجزاء من جيوش الدول كل جزء مطيع لحكومته ودولته . ولا تزال الدول مختلفة في المبادىء والاطماع والنفس الانسانية كانت ولا تزال يقودها الطمع . وقد زعموا ان الخوف سيمنعها من حرب أخرى . ولكنا لا نرى الخوف من القنبلة الذرية قد قلل أطماع النفوس ، ولا صرف الناس عن التسلح والاستعداد الحربي ، ولا حل مشكلة اختلاف المبادىء ، فاذا ذلك الخوف لن يعصمهم من حرب او حروب أخرى . بل ربما كان الخوف من أسباب تلك الحرب كما يزعمون ، واذا لم يكن الخوف فالطمع والجشع واختلاف المبادىء . والنفس الانسانية تعرف انها تستطيع أن تعوض خسائرها مهما عظمت . فلو هلك نصف سكان العالم لاستطاع النصف الباقي أن يعود الى ما كان عليه العالم من الازدحام بالناس . وقد كانت بعض بقاع العالم عامرة تخربتها الحروب الماضية ولا تزال خراباً ، ولم يمنع ذلك الناس من معاودة الحروب ، ولم تكن هذه الحروب العالمية الحديثة أول صنف من الحروب التي يهلك بسببها الملايين من الناس . على أنه لو حاول العالم أن يتعظ ويمنع الحرب لسكان ذلك بحرب أخرى لارغام من لم يتعظ ، وكل حرب توطئة لحرب أخرى في المستقبل .

***

ولقد قال جان جاك روسو « منع الحرب لا يكون الا بحرب أشد من كل حرب » وعندي أن هذا هين اذا استطاعت تلك الحرب الشديدة ان تمنع كل حرب ، فان الظاهر من عظات التاريخ ان كل حرب تبذر بذور حرب جديدة في المستقبل وتهيىء أسبابها ولكن ليس من المستطاع أن يتجنب العالم الحرب ان لم يكن ذلك الرغبة في اعتداء جديد فبسبب اعتداء أو ظلم قديم . وهذه الحرب العالمية الثانية لم تغير طباع النفس الانسانية وما دامت المنافسة أساس الحياة والعمران بين الافراد والجماعات صعب التعاون الذي يمنع الحرب . ومن الصعب

وضع حد للمنافسة حتى لا تتمدد فتؤدي الى الحرب، وما عدا ذلك مغالطة في القول. وهذا يدل على قلة ثقة أهل السياسة بمجلس الأمن العام وهيئة الدول المتحدة أنهم بدأوا يفكرون ويدعون الى وسائل أخرى لمنع الحرب، فبعضهم يدعو الى انشاء ولايات متحدة أوربية بين ممالكها، والظاهر أن المستر تشرشل صاحب هذه الفكرة لا يعرف أن النجاح في انشائها ليس بأقرب الى التحقق مع اختلاف الأطماع والمبادىء. أو انه يعرف ولكنه يخفي ما يعرف لسبب ما. وبعض أهل السياسة يدرك الصعوبة فيدعو الى تحالف الدول الأربع الكبرى وتفاهمها، وهذا لا يكون الا على حساب دول كثيرة صغيرة، مما يؤدي الى الحرب التي يراد تجنبها في المستقبل. ومما يزيد المعضلة الدولية تعقداً بدأ النزاع بين الشيوعية والرأسمالية. وفي الدول التي نظامها رأسمالي يراد إقناع الطبقات الفقيرة بترفيه اجتماعي نسبي سيكون حمله على الطبقات الدنيا الفقيرة من الطبقات الوسطى، لأن أفرادها هم أكثر أفراد الأمة ولأنهم أقل نفوذاً من الطبقات العليا، ولأن المتحصل من الضرائب عليهم وان كانت تصاعدية أكثر من المتحصل من غيرهم لكثرة عددهم، وسيكون حمله أيضاً على الأمم الضعيفة، ولاسيما الزراعية لأنها تستثمرها الأمم الصناعية القوية حتى في التجارة المشروعة. وهذه الوسائل وهذا النزاع مما ينذر أيضاً بحرب في المستقبل.

* * *

لقد رأينا ان الانسان من قديم الزمن فكر في أن الناس كلهم أخوة وان الدنيا وطن العالم. ولقد رأينا أن الدول في كل عصر تحاول اكتساب الانصار بالدعوة الى السلم والاخاء الانساني اذا خافت أن يمسها الضر، فاذا تمكنت نسيت دعوتها. وقد رأينا أن الامل في هذا السلم الانساني الدائم كان ضعيفاً تهيئه الحياة للناس كي يستطيعوا أن يعيشوا حتى يصابوا بحرب مهلكة، فهو من سنن الحياة. وقد رأينا أن الساسة غير واثقين من وسائلهم الحديثة لمنع الحرب. وان أطماع النفس لم تتغير. وان خير ما في النفس قد يؤدي إلى الحرب كما يؤدي شر ما فيها. وان الانسانية تعودت أن تستعيض عما خسرته، في كل حرب، فألفت ذلك واطمأنت.

ع . ق